
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

من مظاهر التعايش الديني في المغرب خلال أزمات العصر الحديث نماذج من "كتاب التواريخ" لأحبار من عائلة ابن دنّان

محمد استيتو*

إن البحث في طبيعة العلاقة بين مكونات المجتمع المغربي وفئاته، وبين طوائفه الدينية بصفة خاصة، في عصور تاريخية سابقة، قد لا يخلو من تأثيرات وإسقاطات لأفكار الوقت الراهن ومفاهيم «العولمة» ومناخها وهواجسها، وذلك بسبب وطأة الأبعاد التي باتت تشكلها اليوم مثل هذه القضايا، وأيضا للحساسية التي قد تثيرها، أو لغير ذلك من الأمور التي تعتبر حاليا من «انشغالات» المجتمع الدولي، نظرا لعلاقتها بـ«السلام» و«الأمن» بين الشعوب والأمم. فهل نقر، من البداية، بأن إثارتنا لهذا الموضوع بالذات قد تكون عملية انتقائية تمت تحت هذا التأثير؟

الواقع أن هذا الأمر يشكل فعلا قضية شائكة تنضاف إلى مسألة الصيغ التي قدمت بها النصوص التاريخية من قبل مدونيها، الذين حرصوا على إعطائها «أشكالا» أو«ألوانا»معيّنة، قد نتأثر بها فنتعاطف معها أو نقف منها موقفا سلبيا، في حين إنه ليس من حق الباحث أن يعيد طلاء النصوص بالألوان نفسها ليكسبها لمعانا أكثر، ولا أن يطليها بغير ألوانها الأصلية فيجعلها أكثر قتامة. فهل يسعفنا وعينا وإدراك هذه الشوائب المنهجية في تقديم هذا الموضوع وفق شروط مقبولة من النزاهة الفكرية والمصداقية؟

هذا ما نتوخاه ونسعى إليه ونمهد له بهذا المثل الشعبي المغربي القائل: «السُّوقْ بْلا يْهودْ، بْحالْ العْدُولْ بْلا شْهُودْ»[1]، كذلك هو حال العديد من مدن المغرب وقراه،

* أستاذ التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة.

1- وهو كناية عن الدور الكبير الذي كان يلعبه اليهود المغاربة في المجال التجاري والاقتصادي عامة، بحكم تعاطيهم للتجارة وممارستهم للحرف والمهن المختلفة.

بعدما غادرها أبناؤها من الطائفة اليهودية، الذين كانوا، حتى الأمس القريب، يشكلون عنصرا بارزا في التركيبة العرقية والاجتماعية والدينية لهذه المدن والقرى، ومكوِّنا أصيلا لموروثها الثقافي والروحي المتنوع، ودعامة قوية لحياتها الاقتصادية، وذلك بفضل ما اشتُهر به اليهود المغاربة عامة من مهارة وإتقان للحرف والصنائع، وإلمام كبير بإدارة المشاريع التجارية، وحنكة ودراية باستثمار المال وبصونه من الهدر والضياع.

وقد عاش أبناء هذه الطائفة مع جيرانهم من باقي الطوائف والعناصر المغربية الأخرى في تناغم وتآزر تامّيْن، وهذه مزية تُعتبر، في الغالب، من فضائل الشعوب والبلدان التي قامت على أسس تعدد الأعراق والديانات، كما هو الحال في المغرب الأقصى، الذي ظلت الطائفة اليهودية تمثل فيه نسبة مهمة من السكان، قبل أن يشرع أبناؤها في الهجرة نحو الخارج ومغادرة بلادهم تحت هذا التأثير أو ذاك، ولاسيما بعد عدوان إسرائيل على جيرانها العرب في حرب 1967م[2]. ففي مدينة مغربية صغيرة كصفرو[3]، مثلا، كانت لا تزال هناك، حتى بعد بدايات الاستقلال، عدة أسر بسيطة، مسلمة ويهودية، تعيش تحت سقف البيت الواحد متقاسمة غرفَه، وكانت تتهادى الطعام وتتعاون في ما بينها في أيام السبت والأعياد، وتؤازر بعضها البعض في الملمات والأيام الحوالك. وكانت المرأة اليهودية، إذا اضطرت إلى الخروج من البيت لقضاء بعض المآرب، أو للذهاب إلى الحمّام، تستأمن جارتَها المسلمة على أولادها الصغار وفلذات أكبادها وهي مطمئنة تماما، والعكس صحيح[4]. فهل هناك ما هو أسمى من مزية الفضل هاته؟

انطلاقا من مثل هذه الصور إذن، وتماشيا مع روح الخطاب الإيجابي الذي يملأ اليوم، مساحات لا يستهان بها في فضاءات العديد من المنابر العلمية والثقافية والإعلامية وغيرها، سواء داخل هذا القطر أم ذاك أو على المستوى الدولي، ارتأينا إثارة قضية التعايش في تاريخ المغرب، ولاسيما بين الطائفة اليهودية والأغلبية المسلمة، باعتبارها

2 - هاجر معظم اليهود المغاربة نحو فرنسا وأمريكا الشمالية خاصة، وذلك بهدف تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، تماما كما هو الحال بالنسبة للمهاجرين من المغاربة المسلمين. إلا أن هناك أعدادا كبيرة من فقراء اليهود هاجرت إلى «إسرائيل» للاستفادة من «الامتيازات» التي كانت تتلقى وعودا بشأنها من قبل المنظمات الصهيونية.

3 - تقع صفرو جنوب مدينة فاس، وتبعد عنها بحوالي 30 كلمتر.

4- هذا ما روته لي، بنوع من الحسرة، سيدتان مسلمتان ممن عاشتا طفولتهما في وسط هذه الأجواء المتسمة بروح التسامح والتعايش والتعاون بين أسر مسلمة ويهودية، وقد كانت مثل هذه الأجواء سائدة أيضا في كثير من جهات المغرب ولاسيما ببواديه. عن الراحلة للا زهور بنت مولاي هاشم العلوي، المزدادة بصفرو سنة 1934م، وللا شريفة البوزيدي، المزدادة بالمدينة نفسها سنة 1943م، وقد كانت أسرتاهما تتقاسمان السكن مع أسر يهودية بمدينة صفرو. رواية شفوية سجلناها عنهما في صيف 2000م.

من القيم التي ميزت الشخصية المغربية منذ البدايات الأولى للوجود الإسلامي في بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى خصوصا. وقد تجلت روح تلك القيم بوضوح، كما رصدتها الكتابات التاريخية، في التسامح ومدى ما تحقق من تعاون بين أتباع الديانتين أثناء فتح الأندلس مثلا، حيث"كان اليهود يعاونون المسلمين في كل هذه الفتوح، فكان المسلمون يضمون إليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها"[5].

غير أن هذه الصور الجميلة الإيجابية شوهتها، في عدة فترات تاريخية، مجموعة من الأحداث والوقائع التي خدشت روح تعاليم تلك القيم، والتي استُغلت، أو قد تُستغل، لإطلاق بعض أحكام القيمة المسبقة، لاسيما عندما يتم إخراجها عن سياقها التاريخي، وعن ظروفها الموضوعية التي أحاطت بها. ولهذا آثرنا، عن قصد، أن نستخرج مادة موضوعنا من كتابات أبناء الطائفة اليهودية ووجهات نظرهم في تلك الأحداث والوقائع. وقد اخترنا لهذا الغرض"**كتاب التواريخ**"، لأحبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية[6]، والذي يضم معلومات مفيدة وفريدة من نوعها عن مجموعة من الأحداث المقلقة والحرجة، التي وقعت أثناء فترات الأزمات السياسية أو الكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب في الفترة ما بين سنة 5198ع[7]/1438م وسنة 5552ع /1792م، وانعكاساتها السلبية المباشرة على المجتمع المغربي عامة، وعلى الطائفة اليهودية خاصة، وعلى طائفة الحاضرة فاس بصفة أخص.

ومن دواعي اختيار هذا الكتاب أيضا رغبتنا في الوقوف على مظاهر التعايش والتسامح والتساكن التي تنبعث، في أيام الشدائد والحرج، من رحم المعاناة وأنواع البلاء، التي يمر بها مجتمع ما، أي في ظروف المحن التي كثيرا ما تميل فيها طبائع النفوس نحو الأنانية والتسلط، والاستبداد واستعمال العنف ضد الآخر في سبيل حماية الأنا أو الأهل أو العشيرة أو القبيلة أو الطائفة. إن مثل هذه الظروف هي التي تمثل معايير الامتحان الحقيقية للَمْس مظاهر التعايش والتسامح الفعلية في مجتمع من المجتمعات،

5- محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**. العصر الأول، القسم الأول، ط. 3، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960، ص. 49.

6- يعرف الكتاب كذلك بـ"**تاريخ فاس**"، وقد اعتمدنا النسخة العربية، من ترجمة عن العبرانية لعبد العزيز شهبر، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطابع الشويخ، تطوان، 2002. وجدير بالملاحظة أن مدوني أخبار"**كتاب التواريخ**"اعتمدوا، أحيانا، في أخبارهم على روايات شفوية استقوها من مسلمين فاسيين، ومنهم شخص يُدعى عبدالواحد بوزبعة، روى الوقائع التي جرت بين أهل فاس البالي وفاس الجديد في عهد محمد الدريدي. راجع صص. 42-41 من المصدر نفسه (م. ن.).

7- ع: التقويم العبري، ويبدأ ببدء الخليقة، حسب زعم اليهود وتوراتهم التي بين أيديهم.

وليس ما يعاين منها في زمن العافية أو في فترات الرخاء والانشراح، لأنها قد تكون آنذاك مظاهر"مزيَّفة"، فيها كثير من المجاملة والنفاق الاجتماعي.

تقع النسخة العربية المترجمة من العبرانية في 108 صفحة، وتحتل أخبار الأحبار فيها الصفحات من 7 إلى 92، وهذه هي النسخة المعتمدة في هذا البحث. وكانت بعض الجهات قد قامت، قبل ذلك، بنشر جزء من هذا الكتاب مترجما إلى الفرنسية، ثم قام غيرها، بعد ذلك، بنشر النص العبراني[8]. فما هو السياق التاريخي لمضمون الكتاب، وما هي طبيعة أخباره وأسبابها؟

أ - السياقات التاريخية لأخبار«كتاب التواريخ»

يجب التنبيه على أن الأخبار الواردة في هذا الكتاب تتعلق في عمومها بأخطر الأزمات التي عرفها المغرب من أواخر الدولة المرينية في القرن 9 هـ/15م إلى بيعة السلطان العلوي مولاي سليمان في عام 1792م، مرورا بفترة حكم الدولة الإدريسية الجوطية(1465-1471م) والدولة الوطاسية(1471-1554م) ثم الدولة السعدية فالدولة العلوية. ومن بين تلك الأزمات هناك، على سبيل المثال: "ثورة" الفاسيين على السلطان عبد الحق، آخر سلطان مريني، وقتله في سنة 1465م، ومحنة أهل فاس بسبب الصراع السياسي والعسكري بين أبي حسون الوطاسي ومحمد المهدي السعدي بين سنتي 1549 و1554م، وأزمة العرش بين محمد المتوكل وعمّيه عبد الملك (المعتصم) وأحمد (المنصور) في سنتي 1578-1576م، والأزمة الطويلة التي عاشها المغرب عامة بعد وفاة أحمد المنصور في سنة 1603م، والأزمة التي عاشتها فاس خلال استسلامها لحكم "السياب" ثم أثناء خضوعها للدلائيين إلى أن قضى العلويون عليهم، ثم أزمة الثلاثين سنة التي تلت وفاة السلطان إسماعيل العلوي (1727-1757م)، وأخيرا الأزمة التي عانى منها المغاربة عامة واليهود خاصة في عهد مولاي اليزيد، في سنتي 1790 و1792م.

---

8 - صدر هذا الكتاب بتحقيق مير بنياهو عن مركز البحث حول الشتات، التابع لجامعة تل أبيب في عام 1993، كما سبق لجورج فيدا (G. Vajda) أن ترجم الكتاب إلى الفرنسية ونشره بهسبريس تحت عنوان:
Un recueil de textes historiques Judeo-Marocains. 1ère partie, Hespéris, 3-4e trim., t. XXXV, 1948, 2e partie , 1-2e trim, 1949.

وعلاوة على ذلك فإن هذه الحقبة شهدت كذلك كوارث طبيعية كثيرة، منها: سنوات جفاف ومجاعات[9]، وأوبئة[10]، وزلازل[11]، وفيضانات[12] خطيرة، خلفت، في معظمها، ضحايا كثيرين ما بين هلكى ومعدمين فقراء ومشردين، وقد ورد عنها في هذا الكتاب معلومات مهمة للغاية.

ومعلوم أن هذه الأزمات أضعفت المغرب كثيرا، وكادت تعصف بكيانه في أكثر من مناسبة، بل يمكن القول إن كثيرا من تلك الأزمات إنما كانت امتدادا طبيعيا لما أصاب البلاد من ضعف داخلي وتفكك في فترة ضعف السلطة المرينية، مما أدى إلى سقوط هيبة قوتها العسكرية، وتراجع أدائها السياسي على المستوى الإقليمي، وفقدانها لموارد التجارة عبر الصحراء.

ومعلوم أيضا أن الإيبريين استغلوا ضعف المغرب في تلك الحقبة، وزادوا من متاعبه الاقتصادية، وضيقوا على جبهته الداخلية عندما احتلوا معظم سواحله في الفترة ما بين 1415 و1515م؛ ثم إنهم، وبفضل محاكم التفتيش، ولاسيما بعد سقوط غرناطة في سنة 1492م، تسببوا في تدفق العديد من موجات المهاجرين الأندلسيين على المغرب للاستقرار فيه، وذلك في القرون 15 و16 و17م. وقد ساور العديد من المتكسبين المغاربة قلق وعدم ارتياح من منافسة هؤلاء القادمين الجدد لهم في أرزاقهم ومعايشهم، نظرا لما عُرف عن الأندلسيين عامة -مسلمين ويهودا- من مهارة وحذق في الحرف والصنائع والتجارة، وعلو كعب في الخطط.

فقد أورد صاحب «**نفح الطيب**» أن الأندلسيين لما هاجروا إلى المغرب وتفرّقوا فيه، «فأمّا أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادُوه، وداخَلوا أهلَها وشاركوهُم فيها

9 - سنوات جفاف ومجاعات: جفاف 1553م (ص. 8)؛ جفاف 1566م (ص. 12)؛ جفاف 1584م (صص. 16-15)؛ جفاف ومجاعة 1603-1606م (صص. 18-17)؛ جفاف 1612م (صص. 24-22)؛ مجاعة 1613م (ص. 26)؛ جفاف 1615م (ص. 27)؛ جفاف 1622م (ص. 29)؛ مجاعة 1624م (ص. 31)؛ مجاعة 1626م (ص. 32)؛ جفاف 1659م (صص. 41-40)؛ جفاف وغلاء 1678م (صص. 45-44)؛ مجاعة 1723-1724م (صص. 65-63)؛ جفاف 1637م (صص. 67-65)؛ جفاف 1759م (صص. 70-69).

10- سنوات أوبئة: 1558م (صص. 12-11)؛ 1610م (ص. 19)؛ 1626م (ص. 32)؛ 1727م (ص. 32)؛ 1679-1678م (صص. 45-44)؛ 1681-1682م (ص. 46).

11- زلازل: 1624م (صص. 33-32)؛ 1638م (ص. 35)؛ 1639م (ص. 68)، 1736م (صص. 76-75)؛ 1757م (ص. 76)؛ 1760م (صص. 76-77)؛ 1762م (ص. 77).

12- أعاصير وسيول: سيول بمراكش وتافيلالت وسقوط دور وقتلى سنة 1639م (ص. 36)؛ عاصفة وسقوط دور وقتلى سنة 1650م (ص. 34)؛ أمطار غزيرة وثلوج وسقوط علية وهلاك تسعة فتيان (ص. 77). ولم نُورد أخبار البرّد والضباب الكثيف، والكسوف...

فاستنْبَطوا المياه، وغرَسوا الأشجار، وأحدَثوا الأرْحي الطّاحنة بالماء وغير ذلك، وعلَّموهم أشياء لم يكونوا يعلَمونها ولا رأوْها، فشرُفت بلادُهم وصلُحت أمورُهم وكثُرت مستغلاّتُهم وعمَّتهم الخيرات (...) وأمّا أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوْطَنوها (...) وأمّا أهل الصّنائع فإنّهم فاقوا أهل البلاد، وقطَعوا معاشهم، وأخمَلوا أعمالهم، وصيَّروهم أتْباعا ومتصرِّفين بيْن أيديهم، ومتَى دخلوا في شُغل عملوه في أقرب مدّة، وأفرغوا فيه من أنواع الحِذق والتّجويد ما يميلون به النُّفوس إليهم، ويصير الذِّكْر لهم...»[13].

وبهذا فإنّ الأندلسيِّين لم يكونوا فقط ناقلين لأفكار ومعارف وخِبرات، بل غدوا فئة اجتماعية منافسة لغيرهم من السُّكّان المحلِّيِّين في الفلاحة والصّناعة والحِرف، كما في الخُطط والمناصب، حيث إن أهل الأدب كان "منهم الوُزراء والكتّاب والعمّال وجُباة الأموال والمُستعمَلون في أمور المملكة، ولا يُستعمَل بلديٌّ(*) ما وُجِد أندلسيّ"[14]. وهذا مما لابدّ أنّه خلّف بعضا، أو كثيرا، من الضّغائن والحسد والغيرة في نفوس السكان المحليين عامة، وذلك مصداقا للمثل الشعبي المعروف قالوا : «شكُون عدوّك، قالوا: صاحب حرفْتك».

وقد كان تجار مدينة فاس، وتجار قيساريتها خاصة، أكثر قلقا واضطرابا، لأنهم كانوا متضايقين أصلا من إخوانهم من التجار «الإسلاميين» أو «البلديين»[15]، المشتركين معهم في ذلك الفضاء التجاري الحيوي، الذي هو مصدر أرزاقهم. وجدير بالذكر أن هذه القضية، التي ترجع أصولها إلى سنة 674 هـ/1275م، ظلت تثار كلما أصابت تجار تلك "القيسارية" ضائقة أو حلت بهم أزمة، وذلك إلى غاية فترة حكم السلطان العلوي مولاي إسماعيل (1727-1672م)، على الأقل.

والواقع أن قلق الفاسيين من الأندلسيين لا يمكن تفسيره بعامل المنافسة فقط، بل وأيضا بما كان من نفرة بين أهل العدوتين -المغرب والأندلس-، وهو ما أثرناه في

13- أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**. 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج. 3، ص. 152.

(*) - بمعنى من أهل البلد، أي مغربي.

14- نفح الطيب، مصدر سابق (**م. س.**)، ج. 3، ص. 152.

15- راجع: مجهول، **قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين**. تحقيق: محمد فتحة، مطبعة فيدبرانت، الرباط، 2004. ومعلوم أن قضية الإسلاميين تعود إلى سنة 674 هـ/1275م، لما نكلت عامة فاس بيهود مدينتهم، وبعد تدخل السلطان أبي يوسف يعقوب المريني أسلم بعضهم واشتغل بالتجارة في قيسارية المدينة، وهو ما أثار حفيظة التجار المسلمين من منافسة هؤلاء المسلمين الجدد، فاتهموهم بالغش وطالبوا بتدخل المخزن (جهاز الدولة) ضدهم، واستفتوا العلماء في شأنهم، أملا في إخراجهم من القيسارية، وقد ظل تجار القيسارية يثيرون هذه القضية أثناء اشتداد الأزمات وفترات الكساد، لذلك ظلت قائمة إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل العلوي. راجع: م. ن.، صص. 9-8.

مناسبة سابقة[16]. ويبدو أن هذا القلق ساور كذلك الطائفة اليهودية، إذ أن تدفق أعداد مهمة من الأسر اليهودية الأندلسية على مدينة فاس خاصة، برصيدها المادي والعلمي والروحي المتميز، وبإحساسها بهذا التميز، تسبب في انقسام أبناء الطائفة إلى أصليين (التوشابيم) ومهجَّرين (الميغوراشيم)[17]. وقد تكون عمليات انتقال أو نقل أعداد أخرى من اليهود الأصليين أو المحليين من داخل البلاد إلى فاس، -كما حدث في سنة 1668م حين نقل السلطان مولاي رشيد العلوي زهاء ثلاثمائة بعل بيت من يهود الدلاء، بعد تخريب الزاوية البكرية بها، وقد كانوا، في معظمهم، من أهل اليسار[18] من الأسباب التي كانت تزيد في إذكاء حدة الانقسام داخل الطائفة اليهودية.

وقد تجلت مظاهر ذلك الانقسام، بصفة خاصة، في التنافس الشديد بين مكونات الطائفة على «النجادة»(زعامة الطائفة)، كما حدث، مثلا، في عهد السلطان مولاي مَحمد العلوي، بين الحبر إسحاق السرفاتي، الذي ارتضته الطائفة، وبين النجيد ريموك طوف بن ريموك، الذي استقوى بأحد المقربين من السلطان فنُصب زعيما بدله، بعدما تعهد بتقديم ثمانية آلاف أوقية للملك، وألف أوقية للمقرب منه، عدا ما وعد به كل واحد من مرافقيه[19]. وبطبيعة الحال فإن هذه الأموال المُتعهد بها غالبا ما كان النجيد المعيّن يستردها من طائفته. وغني عن القول إنه كلما كان قدر تلك الأموال مرتفعا كلما كان عبؤها ثقيلا على أبناء الطائفة، بحيث تضاف إلى مقدار الجزية وغيرها من الضرائب الأخرى التي قد تفرض حسب الضرورة وخطورة الأحوال السياسية أو غيرها[20].

والراجح أن بعض ما أُثبت، في ثنايا الكتاب، من وشايات لليهود ببعضهم البعض، بقصد التتريك أو الانتقام[21]، ليس إلا ترجمة لتلك الانقسامات والصراعات، التي كان

16- محمد استيتو،»أهل فاس بعيون أندلسية». ضمن أعمال ندوة:»**فاس والأندلس**"، فاس 30-29 نونبر 1995، منشورات كلية الآداب، سايس-فاس، مطبعة سيباما، فاس، 2001، صص. 81-61.

17- انظر: كتاب التورايخ، م. س.، ص. 15، وهنا وهناك.

18- راجع: م. ن. صص. 43-42.

19 - عن هذا الصراع، انظر: م. ن. صص. 39-38. وهنا وهناك.

20- راجع: م. ن.، هنا وهناك.

21- مما ورد بشأن الوشايات:»... فقد بعض الأفراد أموالهم بسبب الوشايات...»(م. ن.، ص. 30.). وورد كذلك: "وبعد موت مولاي زيدان [بن مولاي إسماعيل]، جاء الحبر الأجل إبراهيم [؟] عند أمه [أم زيدان] لأنها سمعت أنه كان بجانب ابنها وخادمه، فعظمته وأعطته مالا كثيرا (...) وبعد ذلك ذكرت (...) اسمه عند الملك مولاي إسماعيل (...) ففرح به. وظل إبراهيم يأتيه بالأحجار الكريمة والمرجان والأدوات المختارة، وأدوات الملوك، حتى عظم شأنه عند الملك، والقواد الكبار، وعبيد الملك، والخصيان وكل نساء الملك، وكانت نساء الملك يعرفنه ويصحبنه أكثر وأكثر من الربي مايمران (...) وفي سنة 5477 لبدء الخليقة [1717م] وشوا به إلى الملك (...) ففرض عليه ضريبة كبيرة قدرها خمسون ككارا من الفضة، فباع كل ما كان له (...) وبعد ذلك وشوا به من جديد عند الملك (...) سنة 5482 [1722م] ففرض عليه خمسة وعشرين ككارا. وتصالح مع الملك فارتاح له."(م. ن.، ص. 62). وقد كانت الوشايات بين أبناء الطائفة شائعة في المغرب عامة، كما في مراكش (انظر: م. ن.، ص. 24.)...

يذكيها أيضا ما كان يقوم به، أحيانا، بعض المكلفين من أبناء الطائفة بجمع الضرائب، أو المستأمنين منهم على أموال الجماعة اليهودية من اختلاسات من حسابات الطائفة، لاسيما في فترات المجاعات[22].

وهكذا، ومن خلال ما سبق، نستطيع أن نفهم إذن لماذا اتسمت العلاقات بين مكونات المجتمع المغربي وطوائفه، أحيانا، بالتشنج والتشدد والغلو، ولماذا استُغل الدين أو العرق أو الأصل، في بعض الحالات، غطاء لإذكاء صراع اجتماعي سببه اقتصادي بامتياز، كما في مثال موقف محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت. 1503م) من الطائفة اليهودية بتوات وتمنطيط وأحوازهما، ورسالته الشهيرة في اليهود، وهو الموقف الذي ظل يُثار من قبل بعض الأطراف، عند حدوث أي أزمة اقتصادية، إلى غاية مطلع القرن العشرين[23]، وذلك تماما مثلما استغلت قضية "الإسلاميين"، هي الأخرى، على مدى عدة قرون للغرض نفسه، كما سبق القول.

ب - طبيعة أخبار «كتاب التواريخ" وأسبابها

اللافت للانتباه أن هذا الكتاب استُهل بخبر حزين، تمثل في حادثة فصل الطائفة اليهودية بفاس عن جيرانها المسلمين، إذ بدأ بالنص التالي: "طلْعوا اليهود للملاح سنة 5198 [1438م] (...) من الدروب اللي ففْاس البالي (...) وطُردت طائفة فاس (...) وكان جلاء مرا وسريعا لإسرائيل، طُردوا من المدينة المسماة فاس البالي، وهاجرت عائلات قليلة وبنَت الملاّح"[24]. أما آخر صفحة منه فتضمنت نهاية سعيدة لمأساة عاشها أبناء الطائفة، لاسيما بفاس، في فترة حكم مولاي اليزيد (1792-1790م)، ومما جاء فيها: "... وبعد ذلك عاد [إلى فاس] كل أعضاء الطائفة والحاخامات من أرض منفاهم ومن الجبال التي كانوا تشتتوا فيها. وبنينا البيع التي كانت هُدمت تماما، وعادوا إلى لبس الثياب الخضراء(*). وقام أحد القضاة واشتكاهم للملك [مولاي سليمان] سمت جلالته، على

22- خلال مجاعة وأزمات 5373 ع [1612-13] وفي إطار طقس الاعتراف بالكنيس: اعترف رجل اسمه حنانيا بن ميرة «أن بذمته ستين أوقية من حسابات الطائفة.»(**م. ن.**، ص. 24.) فهل يوحي هذا أيضا بحدوث ممارسات من قبيل تضخيم مقدار الضرائب والغرامات من قبل المكلفين من أبناء الطائفة بجمعها حتى يجنوا منها عوائد خاصة بهم، كما كان يفعل المكلفون بالجباية والخراصون عادة؟

23- محمد بن عبد الكريم المغيلي، **رسالة في اليهود**. تحقيق: عبد الرحيم بنحادة وعمر بنميرة، منشورات مجموعة الأبحاث والدراسات في تاريخ اليهود المغاربة وتراثهم، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005. انظر مقدمة المحققين.

24- كتاب التواريخ، **م. س.**، ص. 7. سمح السلطان المريني لأبناء الطائفة اليهودية ببناء هذا الحي الخاص بهم بالمكان المعروف بالملاّح بجوار قصر السلطان لضمان الحماية لهم، ثم ظهرت بعد ذلك أحياء مماثلة مقتصرة على سكنى اليهود ببعض المدن المغربية الأخرى، وعرفت هي كذلك باسم الملاّح، ولم تكن لليهود أحياء خاصة بهم قبل هذا الحادث.

(*)- كان مولاي اليزيد قد منع بأن لا يلبس أي يهودي أو يهودية لباسا أخضر. راجع: **م. ن.**، ص. 85.

ذلك، فغضب الملك وقال له: «ما لك تتحدث في هذا الشأن، إنما أصنع ما كان يصنعه أبي رحمه الله». وامتلأ الحي [الملاح] بالسكان، لأن بعضهم جاء من مدن أخرى وقبائل أخرى، وتبارك الرب الذي لم يتركنا دون خلاص. ورغم ما هو مكتوب في "المخزوريم" من عدم مباركة الملك، فإننا نبارك هذا الملك يوم السبت وأيام العيد في البيع، لأنه يستحق المباركة من سيد المُلك. وخفف[مولاي سليمان] حتى الضريبة التي كانت تؤديها الطائفة لوالده، وأمرهم أن يُعطوا ضريبة قدرها ألف أوقية كل شهر، متضمنة كل الضرائب حتى الجزية، لأنه كان يحكم حسب الشريعة، **سواء تعلق الأمر بالمسلمين أو الإسرائيليين**"[25].

فما تكون طبيعة الوقائع والأحداث التي اعتُبرت مصدر قلق أو معاناة بالنسبة لأبناء الطائفة اليهودية المغربية، حسب"**كتاب التواريخ**"؟ وما هي أسبابها؟

يمكن إجمال طبيعة تلك الأحداث والوقائع وأسبابُها في الآتي:

- **الإهانة**: ومن ذلك مثلا تعرض أبناء الطائفة، من قبل البعض أحيانا، للشتم[26]، أو للبصق[27]، أو للضرب[28]، أو للإلقاء في الماء، ومن ذلك مثلا إعطاء مولاي المتوكل بن مولاي إسماعيل العلوي الأمر بإلقاء يهوديَيْن فقيرَيْن مع رهاط في سواقي الماء[29].

- **التتريك واستصفاء الأموال**: ومن ذلك، مثلا، ما أشرنا إليه آنفا من فرض السلطان مولاي إسماعيل العلوي ضرائب كبيرة على أحد الأحبار المقربين من البلاط بسبب وشايات به، "فباع كل ما كان له (...) وبعد ذلك وشوا به من جديد عند الملك (...) ففرض عليه خمسة وعشرين ككارا. وتصالح مع الملك فارتاح له"[30].

- **العقوبات والجزاءات**: فقد تعرض بعض أبناء الطائفة لعقوبات وجزاءات،

25- م. ن.، ص. 92.

26- في عهد مولاي اليزيد العلوي«كان قواده الأشرار يبصقون علينا ويُذلوننا...»**م. ن.**، ص. 85.

27- «وكان المسلمون لا يخاطبوننا إلا بالشتائم المُعنِّفة...»**م. ن.**، ص. 85.

28- ومن ذلك، مثلا، أن مولاي إسماعيل العلوي كلف القائد الغازي بوحفرة بجمع الضرائب من الطائفة، «وكان القائد المذكور يضرب ويُذل اليهود والطلبة والحاخامات ورجال التوراة. وغضب القائد المذكور غضبا شديدا (...) وكان يضرب ويذل الحاخامات واحدا واحدا. وكان يصنع نفس الصنيع لكل فرد من أفراد الطائفة، وذل أحد الأغنياء، واسمه سليمان بوطبول الذي لم يستطع تحمل المضايقة والضرب والخنق، فغير دينه.»(**م. ن.**، ص. 53.) انظر أيضا تعرض وجهاء يهود وحاخامات للضرب للإقرار بأن بحوزتهم أموال أحد المضطهدين. **م. ن.**، صص. 88-87.

29- وسبب ذلك أنه فرض عليهما أن يقتنيا له «دايْرا»[سكرناط أسلهام] من السوق فلم يعثرا عليه، لأن التجار خبأوا سلعهم وأقفلوا حوانيتهم، فعاقبهما بذلك. **م. ن.**، ص. 58.

30 - م. ن.، ص. 62.

تراوحت بين التعذيب من أجل تحصيل ضرائب أو مغارم، كما فعل عبد الله بن محمد الشيخ المامون ببعض يهود فاس[31]، وقطع الأيدي، كما حدث ليهوديين اثنين بمكناس، "عْلى عد اضَّارْبُوا مع الحبر الأجل السموأل بن نحموش..."[32]، والقتل رميا بالرصاص، كما فعل السلطان إسماعيل بثلاثة يهود، قضى منهم اثنان نحبهما[33]، والصلب، كما فُعل بزعيم الطائفة بتافيلالت[34]، والحرق، كما فعل حاكم فاس، مولاي حفيظ بن مولاي إسماعيل بيهودي اتهم فرية[35]، والرجم ثم الحرق، كما فُعل بيهودي "تْغْنن مع واحد المسلم، وقام عليه اليهودي، وضرب المسلم بْواحدْ المِدْيس..."[36]، وتطبيق الحد بالتعليق والرجم والخنق والحرق، كما فُعل بلص"مرتد"يدعى إبراهيم بينينو...[37].

- **التهجير والنفي**: وذلك لأيام معدودة أو لمدد طويلة، ففي سنة 1438م طرد اليهود من فاس البالي وبنوا الملاح. وفي سنة 1575م نفي يهود مراكش لمدة أحد عشر يوما. وفي فترة حكم مولاي اليزيد العلوي نفي يهود فاس من الملاّح وأقاموا بمخيم قرب القصبة، لمدة 22 شهرا[38].

- **انتهاك حرمات البيع والمدارس الدينية أو هدمها**: كما حدث في فاس سنوات: 1646-1647م، و1653م، و1790م[39].

- **نبش القبـور**: حدث هذا بصفة خاصة ببعض المقابر اليهودية بفاس في فترة حكم مولاي اليزيد العلوي[40].

---

31 - لم يوضح الإخباري طبيعة التعذيب. م. ن.، صص. 19-18.

32 - م. ن.، صص. 13-12.

33 - م. ن.، ص. 52.

34 - م. ن.، ص. 30.

35 - م. ن.، ص. 50.

36 - م. ن.، صص. 16.

37 - م. ن.، صص. 17-16. كان إبراهيم بينينو كلما ألقي عليه القبض في عملية سرقة يدعي أنه مسلم، فيخلي الناس سبيله، وحدث مرة أنه سرق منزل القاضي عبد الواحد الحميدي، ولكثرة ما كانت بعض أعمال السرقة تُنسب لبينينو، سواء كان هو الجاني أم لا، وأيضا لكثرة ما كان يخلى سبيله دون عقاب كلما ضُبط، كان الفاسيون يرددون هذا المثل "اسرق يا السارق طُول ما بينينو عايش". المكان نفسه.

38- م. ن.، ص. 7. وصص. 14-13. وصص. 90-78.

39 - م. ن.، صص. 37-36. ص. 34. صص. 90-78.

40 - م. ن.، صص. 90-78.

- **انتهاك حرمة المنازل ونهبها أو تخريبها:** كما حدث بتادلا في سنة 1610م، وبملاح فاس في سنة 1621م، وفي فترة حكم مولاي اليزيد[41].

- **أسر النساء أو استباحتهن:** فقد حدث أسر يهوديات وبعْن لمسلمين بتافيلالت سنة 1623م، وانتهكت حرمة نساء بملاح فاس سنة 1790م[42].

- **انتقام العوام من الطائفة لأعمال ارتكبها أبناؤها:** ففي حوالي سنة 1440م وقعت "مذبحة الخصّة" -النافورة- بفاس، بسبب انتهاك أبناء من الطائفة لحرمة الجامع الكبير[43]. وفي سنة 1465م حدثت «مذبحة الملاح»، بسبب اعتداء وزير يهودي بالضرب على امرأة مسلمة شريفة النسب[44]. وفي سنة 1554م قتل الجنود الأتراك، المرافقون لأبي حسون الوطاسي، أحد عشر من يهود الملاح بفاس، وجرحوا أناسا كثيرين[45].

---

41 - م. ن.، ص. 19. ص. 28، وصص. 90-78.

42 - م. ن.، ص. 31. وصص. 90-78.

43 - كتب الإخباري ما يلي: «... ومفادها أن اليهود اجتمعوا وساروا حتى دخلوا الجامع الكبير، وسدوا نبع الماء بالجامع، وملأوا مجاري الرخام، الذي تجري فيها المياه بالخمر، وأمضوا الليلة يشربون الخمر حتى ثملوا. وعند الفجر، انسحبوا من ذلك المكان، وبقي هناك أحد اليهود ثملا هاجعا، وجاء المسلمون، وأخرجوه من هناك، وقتلوا كل اليهود الذكور الذين وُجدوا. ولم ينج حتى الذين بدلوا عقيدتهم. وقتل المسلمون الصبية والنساء، ومنذ هذه المذبحة الثانية قرر اليهود أن يلبسوا جميعا رداءا من ألياف.»م. ن.، ص. 8.

44 - يُعزى سبب هذه المذبحة -حسب الإخباري العبراني- إلى أن السلطان عبد الحق المريني «ولى على المدينة [...] نائبا يهوديا اسمه هارون. وتعظم اليهود، وساحوا، وغيروا القوانين، وصنعوا صنائع لم يقوموا بها من قبل، ومن ذلك أنهم أخذوا مسلمة متزوجة وضربوها ضربات قاسية. وكانت تصرخ وتطلب منهم العفو، ولم يستمعوا لها، واستمروا في ضربها، حتى اجتمع المسلمون وقتلوا اليهود مقتلة عظيمة، وقتلوا الذكور ولم يبق من اليهود واحد لم يُهَن أو يبدّل عقيدته. ومع القتلى قتلوا امرأة وظفروا باثنين من أبنائها، وأخذوهم بأسلحة، متنكرين إلى الملك. وأشفقوا على النساء وكرزوا في المدينة بوقف ضرب اليهود.»(م. ن.، ص. 7.)

وذكر أحمد بن خالد الناصري من جهته هذه الوقعة وأرجع أسبابها إلى أن السلطان عبد الحق المريني ولى الوزارة بفاس اليهوديين هارون وشاويل، وذلك تأديبا لأهل فاس وتشفيا منهم لنقمتهم عليه إيقاعه بالوطاسيين، «فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودي هرون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسن، لا يألو جهدا في العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة. «ثم إن اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة (...) فقبض عليها (...) فأنحى عليها بالضرب، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمى اليهودي وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول، وأمر بالإبلاغ في عقابها، وسمع الناس ذلك فأعظموه، وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياگلي و(...) أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان (...) فصعدوا إلى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم..."»الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. 9 أجزاء، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري،، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج 4، 1955، صص. 98 و99.

45- كتاب التواريخ، م. س.، ص. 9.

- **شطط الجباة والإجحاف في الضرائب والمغارم:** تتعلق معظم الشهادات المسجلة في هذا السياق أو كلها بفترات الاضطرابات السياسية والاجتماعية، وقد ترتب عنها في أغلب الحالات فرار أغنياء اليهود من الملاح إلى مدن مغربية أخرى أو إلى البوادي[46].

ومعلوم أنه في الفترات المضطربة يُضطر الحكام والمخزن، عادة، إلى فرض ضرائب كثيرة على الرعية، دون تمييز، لتعويض العجز في المداخيل ولتوفير النفقات الضرورية التي تتطلبها عمليات الحفاظ على الأمن وتجنيد الجند والمحاربين، وما إلى ذلك، وكثيرا ما كان يترتب عن هذه العمليات إفقار القبائل، ولذلك ردد المغاربة المثل الشعبي القائل: «إيلا جاع المخزن جوّعنا»[47].

ومع ذلك فإنه يبدو أن كثيرا من التجاوزات أو حوادث"الانتقام"، التي تعرضت لها الطائفة اليهودية في تلك الفترات العسيرة من تاريخ المغرب، ولاسيما من المخزن أو من المتنافسين على السلطة، لم تكن دائما بقصد الابتزاز الضريبي، بل "تأديبا" لها على تقلباتها في ولاءاتها السياسية، التي كانت تُكره على أن تدين بها لهذه الجهة أو تلك، وعلى التنصل منها وموالاة الطرف القوي ودعم"مشروعه"بالمال، طوعا أو كرها، لذلك كانت الطائفة تدفع غاليا، أحيانا، ثمن تذبذب مواقفها وتقلباتها.

هذه إذن، ضروب من الممارسات التي شكلت بالنسبة لأبناء الطائفة اليهودية المغربية مصدر قلق وتشويش، كما دوّنها الأحبار في أوانها، والتي نذكّر بأنها ممارسات لم تحدث في ظروف عادية، بل وقعت خلال الأزمات الخطيرة، لذلك غلب عليها، في كثير من الأحيان، طابع الغلو والانفعال الآني في صيغها وفي أسلوب سردها وعرضها، وهذا أمر مفهوم وطبيعي ما دام أن تلك الشهادات المسجلة بشأنها إنما هي، في النهاية،"تاريخ موجه إلى الطائفة ضمن تصور خاص وفهم خاص وغاية خاصة. وليس يعني هذا أنها نزيهة نزاهة القطع ما دامت تحكمها الذاتية ويحكمها الانتصار إلى العرق"[48].

46 - انظر: **م. ن.**، هنا وهناك.

47 - وأيضا: «إيلا جاع المخزن جُعنا». محمد بلاجي، «**أقنعة الطعام**»، أمل، عدد 16، السنة 1999، ص. 161.

48 - كتاب التواريخ، **م. س.**،"تقديم"المترجم، ص. 3.

ولهذا فإنه لا ينبغي أن يُستشف من تلك الأحداث أنها كانت موجهة، وعن قصد، ضد الطائفة وحدها، بل عانى منها المسلمون أيضا، كما تؤكد ذلك كتب التاريخ والحوليات المتعلقة بالفترة[49]، بل إن شهادات **"كتاب التواريخ"** أكدت هي نفسها هذا الواقع في مناسبات عديدة، سواء في صيغ من التعميم أم في صيغ من التخصيص. ففي صيغ التعميم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ بمناسبة موت السلطان محمد بن عبد الله في سنة 1790م: "وفي سنة 5550 [1790م] (...) بلغ خبر شؤم من مدينة الرباط يعلن موت الملك سيدي محمد [بن عبد الله] تغمده الله برحمته. وضجت كل المدينة، وكانت فوضى عظيمة، **وكان ارتباك في أوساط اليهود، وبين الـگوييم** [المسلمين]..."[50]. ونقرأ عن عهد مولاي اليزيد: "... وكان مصيبة **على بني إسرائيل وعلى المسلمين**"[51].

أما ما يرتبط بصيغ التخصيص فيتعلق بما تعرض له مسلمون، ومن بينهم أمراء، من ممارسات، كالتعليق على شجرة بخازوق[52]، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف[53]، والقتل غرقا[54]، وفقء العيون بالسفافيد[55]، وما إلى ذلك مما يمكن الوقوف عليه في هذا الكتاب من أخبار التنكيل التي لم يسلم منها حتى الملوك والأمراء، ومنهم، على سبيل المثال: محمد المتوكل، الملقب بالمسلوخ[56]، وعبد الملك بن زيدان السعدي[57]، والأمير

49 - راجع، مثلا: الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**. جزآن، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1980 و1982؛ وكربخال مرمول، **إفريقيا**. 3 أجزاء، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984، و1989؛ ودييگدي طوريس، **تاريخ الشرفاء**. تعريب: محمد حجي ومحمد الأخضر، مطابع سلا، سلا، 1988؛ ومجهول، **تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاگمدرتية**، نشر: جورج كولان، الرباط، 1934؛ وطبعة دار تنمل، مراكش، 1994، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة؛ ومحمد الصغير اليفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**. مكتبة الطالب، الرباط، د. ت.؛ ومحمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**. 4 أجزاء، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، 1986-1977؛ ومحمد بن الطيب القادري، «**حوليات نشر المثاني**»، قطعة من كتاب نشر المثاني بمكتبة البودليان بجامعة أكسفورد، تقديم ونشر: نورمان سيكار، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1978؛ ومحمد الضعيف، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**. تحقيق: أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986؛ والناصري، الاستقصا، م. س.، أجزاء: 9-4....

50 - كتاب التواريخ، **م. س.**، ص. 79.

51 - **م. ن.**، ص. 92.

52 - فعل هذا مولاي رشيد العلوي بمحمد الدرايدي بفاس. **م. ن.**، ص. 42.

53 - فعل هذا مولاي إسماعيل بابنه محمد العالم. **م. ن.**، ص. 62.

54 - قتل مولاي إسماعيل العلوي ابنه مولاي عبد الله بالطريقة التالية:»ملأ صندوقين بالحديد والرصاص وعلق له صندوقا في رجليه وآخر في عنقه وألقاه برهاط في ساقية الماء فغرق ومات.» وكان ذلك عقابا له على أسره فتاة بكرا من دوار شراقة وسلبه سيارة من اليهود. (**م. ن.**، ص. 59.) وفي الأسبوع نفسه قتل مولاي إسماعيل ابنه المعتز، لأنه كان يريد المثول أمامه، وتشاجر مع الحراس الذين منعوه من الدخول لأنه كان سكرانا."وبعد ذلك الملك وجد أم [المعتز] وسط الدار تبكي ومعهما أخ الميت المذكور، فلما رآها تبكي، أخذ الابن الآخر وألقاه في ساقية الماء فمات."المكان نفسه.

55 - فعل هذا مولاي اليزيد بمائة من وجهاء مدينة مراكش. **م. ن.**، ص. 89.

56 - انظر: **م. ن.**، ص. 15.

57 - انظر: **م. ن.**، ص. 32.

العلوي محمد العالم ابن مولاي إسماعيل[58]...

وعلى أي فإذا كانت أخبار"**كتاب التواريخ**" أخبارا حزينة ومؤلمة، في معظمها، ما دام أن مدونيها اقتصروا على تسجيل الفواجع، التي قد تحدث في كل زمان ومكان أثناء الأزمات والكوارث الطبيعية، فإنها حُبلى، أيضا، بقيم إنسانية سامية، وبفضائل الشهامة والنبل، والتآزر ونكران الذات، التي سادت بين أبناء الطائفة والمسلمين، وهي، كما نعلم، خصال تندر، عادة، في الظروف الصعبة. وقد شكلت أخبار هذه القيم والفضائل، المتفرقة في ثنايا الكتاب، مصدر ارتياح في زحمة أخبار التشويش والقلق والفواجع الطاغية؛ وتعكس أخبار الارتياح تلك قدرة المجتمع المغربي على تجاوز مشاكله وتناقضاته ونعراته في وقت المحن، مهما عظُمت، في إطار من التعايش والتسامح بين طوائفه وأعراقه، ولاسيما بين أهله من الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية. فأين تتجلى مظاهر هذا التعايش والتسامح في"**كتاب التواريخ**"؟

ج - تجليات مظاهر التعايش والتسامح الديني في «كتاب التواريخ»

لقد تعرضنا، قبل قليل، إلى الأسباب التي كانت من وراء حدوث النفرة والعداوة بين الطائفة اليهودية وبعض الجهات أو المؤسسات، وإلى جملة من سياقاتها التاريخية وظروفها البشرية أو الطبيعية، ويمثل أسلوب نص الخبر وطبيعة ألفاظه، وضروب الأوصاف والنعوت المستعملة في كتابنا هذا، في حق من اعتُبروا مسيئين لإسرائيل، أشكالا من التعبير عن مستويات النفرة أو العداوة لدى أبناء الطائفة، أو لدى مسجلي تلك الأحداث على الأقل.

ومن الأوصاف والنعوت التي وردت في السياق، هناك:"الشرير"[59]، و"الظالم"[60]، و"المدنَّس"[61]، و"العدو الجائر"[62]، و"العدو المعتدي"[63]، و"دُمر اسمه"[64]، و"مُحق اسمه

58 - انظر: **م. ن.**، ص. 62.

59 - ومن ذلك ما جاء في هذا النص: «... جاء أحمد بن العربي الشرير الكبير. أمسكوا الملك [عبد الملك السعدي] وعلقوه على شجرة.»**م. ن.**، ص. 32.

60 - استعمل هذا اللفظ في حق محمد الحاج الدلائي لإعطائه الأوامر بهدم عدد من البيع. **م. ن.**، ص. 41.

61 - استعمل هذا اللفظ في حق محمد الدريدي"الذي اعتدى على إسرائيل كثيرا."**م. ن.**، ص. 41.

62 - ويقصد القائد بوبكر التامري، لأنه هدم عدة بيع بملاح فاس بأمر من محمد الحاج الدلائي. المكان نفسه.

63 - استعمل هذا اللفظ في حق القائد بريحان. **م. ن.**، ص. 18.

64 - استعمل هذا اللفظ في حق شخص اسمه القائد الزرهوني. **م. ن.**، ص. 12.

وذكره"[65]، أو"محق اسمهم وذكرهم"[66]، وأيضا كلمة"المسيء"، التي استعملت مرتين فقط في حق قائد واحد، هو محمد الدريدي[67]، وثمان وعشرين مرة في حق السلطان مولاي اليزيد[68]، وهو السلطان الوحيد الذي نُعت بذلك.

وعلى النقيض من هذا فإن «**كتاب التواريخ**»مليء أيضا بأشكال التعبير المختلفة عن مظاهر التعايش والتسامح، سواء تعلق ذلك بالشكل، أي بلغة نص الخبر، أم بمضمونه، أي بالأفعال والمواقف التي عكست روح الاحترام ومظاهر التعايش والتسامح في تلك الظروف الحرجة من تاريخ المغرب.

وهكذا فعلى مستوى لغة نص الخبر، فإن الأحبار، مدوني تلك الأخبار، وعلى الرغم من أن تقاييدهم كانت خاصة بعائلتهم وحدها، إلا أنهم حرصوا، في كل مناسبة تقريبا، على ألا يذكروا أسماء السلاطين/الملوك إلا وهي متبوعة بصيغ ثناء تليق بمقامهم، وهي: «نصر الله»[69]، و"ارتفع مجده"[70]، و"سمت جلالته"[71]... واللافت للانتباه أن أغلبية السلاطين، الذين ذكروا في الكتاب، حظوا بصيغ الثناء هاته إلا مولاي اليزيد. وللإشارة فإن مثل هذه الصيغ تخلو من المصادر المغربية العربية إلا قليلا جدا.

أما القواد والقضاة، الذين أحسنوا إلى الطائفة، فأُتبعت أسماؤهم بصيغة: "عزُّالله"[72]. واللافت للانتباه هنا أيضا أن محمد الحاج الدلائي، الذي يُعزى إليه هدم بيع بفاس، على الرغم من أن اسمه ورد، في إحدى المناسبات، مسبوقا بـّالظالمّ إلا أنه

65- ورد ذلك في حق سلاطين ومفتين وقواد، منهم: المفتي بوعلي حرزوق (حرزوز) (م. ن.، ص. 10)، وقائد جيش الترك صالح رايس (ص. 10)، وأبو حسون الوطاسي (ص. 11)، والقائد بريحان (ص. 18)، والقائد محمد گـرني (ص. 19)، والقائد محمد السنوسي (المكان نفسه)، والقائد أبو بكر التامري (صص. 38 و39).

66- جاء ذلك في حق المسلمين من أهل فاس، بسبب أنه «كان لإسرائيل ألم كبير من المسلمين، محق اسمهم وذكرهم.»م. ن.، ص. 17.

67- م. ن.، ص. 42.

68- انظر: م. ن.، صص. 91-79.

69- استعمل هذا اللفظ أربع مرات في حق عبد الله الغالب (1574-1557م) دون سواه. انظر: م. ن.، صص. 12-11.

70- اقتصر استعمال هذا اللفظ على السلطان مولاي إسماعيل العلوي، وذلك في خمس عشرة مناسبة. انظر: م. ن.، صص. 62-44.

71- استعمل لفظ «سمت جلالته»57 مرة، منها: مرة واحدة في حق كل من صالح رايس التركي (م. ن.، ص. 10)، وأبي حسون الوطاسي (ص. 10)، ومحمد الشيخ المهدي (ص. 16)، وعبد الملك المعتصم (ص. 13)، وأحمد الذهبي العلوي (ص. 74)، وأخيه عبد الملك (ص. 75)؛ ومرتين في حق محمد الشيخ الأصغر (ص. 33)؛ وثلاث مرات في حق أحمد المنصور (صص. 17-15)؛ وخمس مرات في حق مولاي رشيد العلوي (صص. 43-42)؛ وست مرات في حق مولاي سليمان العلوي (صص. 91-90)؛ واثنتي عشرة مرة في حق مولاي عبد الله بن إسماعيل (صص. 73-69)، ومثلها في حق ابنه السلطان محمد (صص. 74-72)؛ وثلاث عشرة مرة في حق مولاي إسماعيل (صص. 70-44).

72- ومنهم القائد يحيى (في عهد المنصور السعدي) (م. ن.، ص. 17)، والقائد عياد والقاضي التاودي في بداية حكم مولاي سليمان (صص. 90 و91).

أتى، في الوقت نفسه متبوعا بـ"عزالله"[73]. إنما مهما يكن موقف أبناء الطائفة اليهودية الفاسية من الفقيه الدلائي فإن وضعية إخوانهم بالدلاء كانت حسنة للغاية، وذلك بشهادة نص"**كتاب التواريخ**" نفسه، فمما ورد فيه أن السلطان مولاي رشيد العلوي لما أمر اليهود بمغادرة الدلاء لتخريبها والانتقال إلى سكنى فاس،"حملوا ما يأكلون فقط على أكتافهم، **وكان أكثرهم من الأغنياء**، تزخر بيوتهم بكل الطيبات من أوعية فضة، وأوعية ذهب ونحاس وحديد وقصدير ورصاص وكثير من الغلال، والحنطة والشعير والفول والعدس **مما لا عد له**، وأوعية مملوءة بالخمر والزيت والعسل والزبدة. تركوا كل تلك الأشياء هناك، إلا ما استطاع كل فرد حمله من ذهب وفضة. وأتت كل الطائفة (...) إلى فاس (...) وكانت (...) مكونة من قرابة ثلاثمائة بعل بيت»[74]. وغير خاف أنه ما كان لطائفة، من ملة مختلفة، أن تنعم بكل ذلك الثراء تحت حماية زاوية دينية في غياب التعايش والتسامح؛ وهذا ما يثبت بجلاء -في نظرنا- أن ما تعرض له أبناء الطائفة في بعض الفترات من امتحان، لم يكن بسبب الاختلاف في الملة والدين أو في العرق، وهذا ما ينفي حدوث اضطهاد على أساس ديني.

وعلى أي فإن"**كتاب التواريخ**"سجل العديد من المواقف التي تنم عن روح التعايش والرغبة الصادقة في التسامح، والحث عليه وإشاعته، وممارسته بين المغاربة عامة، سواء على المستوى الرسمي أم على المستوى"الشعبي"، وهو ما نجمله في الآتي:

أ – على المستوى الرسمي

- إشراك السلاطين، أحيانا، أبناءَ الطائفة في تدبير شؤون الدولة، كتعيين السلطان عبد الحق المريني اليهوديين هارون وشاويل وزيرين مكلفيْن بإصلاح الوضع الجبائي[75]، نظرا للانخفاض المهول في مداخيل بيت المال، وذلك على الرغم من حساسية المنصب. وقد انتهج هارون، بصفة خاصة، سياسة حازمة قامت، على ما يبدو، على محاولة فرض

---

73 - جاء في النص ما يلي:»من المعلوم أن الزمن الذي هدّ فيه **الظالم** محمد الحاج **عزالله**..."**م. ن.**، ص. 41.

74 - **م. ن.**، ص. 43.

75 - ورد (في **م. ن.**، ص. 7) ذكر لهارون فقط، باعتبار أن الملك عينه نائبا عنه على الملاح. ولمزيد من المعلومات حول موضوع اليهوديين وما ترتب عن سياستهما، راجع: الاستقصا، **م. س.**، ج. 4، صص. 100-98.

الضرائب على جميع الرعايا دون استثناء، وهي السياسة التي دفع السلطان المريني حياته وعرش أسرته بسببها. وتجدر الإشارة إلى أن السلطان السعدي محمد المهدي قد اضطر، هو كذلك، إلى اعتماد سياسة مشابهة، عندما فرض"النايبة"على القبائل ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا، ولا رب زاوية ولا منتسب[76].

- حرص السلاطين على حضور أبناء الطائفة وأعيانها وحاخاماتها مراسيم بيعتهم إلى جانب أعيان المسلمين وعلمائهم، دون تمييز. وقد كانت هذه من المناسبات التي غالبا ما تستغل لتقديم الطائفة التماسات أو شكاوى إلى السلطان، الذي يمنّي، من جهته، الطائفة ببعض الوعود، وخير مثال على ذلك تعهد مولاي سليمان ليهود فاس بالعودة إلى حيهم [الملاح] بمناسبة اعتلائه العرش، وهو ما حدث فعلا[77].

ولذلك فإنه من اللافت للانتباه أن اليهود كانوا دائما يتفاءلون بكل معتل جديد للعرش؛ فعندما بويع عبد الملك بن زيدان السعدي، وكان لا يزال بعد في الخامسة عشر من العمر، اعتُبر "**رمزا حسنا لإسرائيل.** لقد أضاء اسمه ظلامنا، وفعل معنا معجزات، وكثر جدالنا، وانتقم لنا انتقاما (...) واليهود اليوم يذهبون **وحدهم** إلى قرية صفرو."[78].

- حظوة أعيان الطائفة وبعض أحبارها بمكانة مرموقة لدى الأمراء والبلاط: ومن ذلك، مثلا، أن أم مولاي زيدان بن مولاي إسماعيل، لما مات ابنها الأمير، عظّمت أحد أصحابه من الأحبار وأكرمته بالمال، وفرح به السلطان نفسه، وظل الحَبر يتردد عليه حتى عظم شأنه عنده وعند القواد الكبار وعبيد القصر، والخصيان، وكل نساء الملك، فكن يعرفنه ويصحبنه[79].

- مرافقة اليهود لـ "حركات" السلاطين أو "محلاتهم" واستفادتهم ماديا منها: ومن ذلك أن السلطان مولاي إسماعيل، لما خرج إلى تارودنت لمحاربة ابن محرز، رافق

76- لما تغلب الشيخ المهدي على بني وطاس وصفا له الأمر، «التفت إلى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته (...) فمن ذلك أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة في لسان العامة بالنائبة، ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا، حتى أرباب الزوايا والمنتسبين.»الاستقصا، م. ن.، ج. 5، ص. 31.

77- كتاب التواريخ، م. س.، ص. 90.

78- م. ن.، ص. 31.

79- م. ن.، ص. 62.

جيشه كثير من اليهود، من كل المدن، وربحوا مالا كثيرا في تلك الحملة[80].

- انشغال السلاطين بأوضاع الطائفة: فحسب **"كتاب التواريخ"** أن الملاح كان أول حي بفاس دخله السلطان مولاي رشيد العلوي، وكان ذلك ليلا."ونزل بدار الربّي يهودا مانصان(...) ومكث الملك (...) بفاس ثلاثة أعوام (...) وكان في أيامه اكتفاء كبير وخير كثير. وعمت البركة أيدي الناس، وعاد كل من كان منفيا ومنبوذا إلى مكانه في أيام الملك المذكور"[81].

وورد أيضا أن السلطان محمد بن عبد الله، لما حل بفاس، عين أربعة قواد لحراسة حي الملاح وأوصى بأهله خيرا."وبعد ذلك أرسل اثنا عشر (كذا) قائدا مع القائد علال بن سعود ليقول إنه مع اليهود. وأوصى بعدم إرهاق أي يهودي ومن فعل ذلك، يموت. ويوم السبت المقدس، السادس من شهر آب، دخل الملك، سمت جلالته، فاس الجديد، وجاء (الأمير) مولاي إدريس إلى المدينة مساء. وقال: كل من قبض من يهودي ولو درهما سُخرة، عقابا يعاقب (كذا) بأمر الملك. وجاء لهم بطعامهم (...) وأوصاهم باليهود. وعاد الملك إلى المعسكر عند مساء السبت. وأُقفلت الأبواب حتى لا تمتد يد الجند إلى اليهود. وفي صباح يوم الأحد، جاء [الأمير] مولاي إدريس، وأمر بفتح الأبواب. وخرج من أراد الخروج ودخل من رضي الدخول. وعلى الفور خرج اليهود، رجالا ونساء وأطفالا، خارج المدينة"[82].

- نجدة رجال المخزن الطائفة عند تعرضها لخطر: فعندما شب حريق في مخيم الطائفة بقصبة فاس سنة 1791م، واحترقت خيام كثيرة وأواني عديدة، وخرج اليهود من القصبة ليلا خارج المدينة بجانب واد المدينة وسط ألسنة اللهيب، وحين شاهد حاكم المدينة النيران من فاس الجديد وتخوف من تعرضهم لعمليات سلب ونهب، شد حزامه، وأمر أصحابه بمرافقته، وجاء راكبا على فرسه، وقبض على كثير من المسلمين، الذين استغلوا

80- م. ن.، ص. 44. وفي السياق ذاته ورد أيضا، أنه"في شهر حشوان من سنة 5399 [1639م] جاء مولاي محمد الشيخ [الأصغر] سمت جلالته [إلى فاس] (...) وجاء معه تجار يهود ونصارى (...) وكان الملك المذكور رجلا فارسا يكره الرشوة، يحب الفقراء والمنكسرين، ويتبع الحقيقة."م. ن.، ص. 33.

81 - م. ن.، ص. 42.

82 - م. ن.، صص. 74-73.

الحادث للسرقة، وضربهم، وبقي مع أبناء الطائفة حتى أُخمدت النيران[83].

- تدخل نساء القصر ووجهاء وقواد لدى السلاطين لفائدة أبناء الطائفة في بعض القضايا: ومن ذلك، مثلا، أنه لما احترق مخيم القصبة في سنة 1792م، وجهت أم مولاي اليزيد وقواد جيش الوداية، بالتماس من الطائفة، رسائل إلى السلطان يستعطفونه فيها بالسماح لليهود بالعودة إلى حيّهم[84]. وسُجلت، في هذا الصدد كذلك، مساعي مماثلة لفائدة الطائفة، قام بها عدد من القواد أو القضاة، منهم القائد العربي الجساس[85]، والقائد الغنيمي[86]، والقاضي التاودي[87]، وغيره كالقاضي الذي عارض سياسة اليزيد تجاه الطائفة، لأنها مخالفة للشريعة الإسلامية[88].

وقد عُرف عن قضاة مسلمين كثيرين النزاهة الأخلاقية والفكرية والدينية فنالوا ثقة أبناء الطائفة وتقديرهم ومحبتهم، مثل قاضي الجماعة بفاس وخطيب القرويين بها أبي القاسم بن محمد بن أبي النعيم الغساني، الذي خلف مقتله فاجعة وخسارة كبرى بالنسبة للطائفة، لأنه"كان رجلا فاضلا يحب اليهود"[89].

83 - **م. ن.**، ص. 86.

84 - **م. ن.**، ص. 87. ومن ذلك أيضا أنه بعد تغلب عبد الله بن محمد الشيخ المامون وجيشه من شراقة على أهل فاس البالي"لم يذهب يهودي واحد إلى فاس البالي إلى حدود اليوم الثاني عشر من شهر كسلاف، مخافة الوقوع في قبضة شراقة أعداءهم (كذا) (...) وجاء رُسل وأخبروا: **أن وجهاء [المسلمين] اجتمعوا وأعلنوا أن اليهود لا ذنب لهم.** وقالوا أقوالا حسنة في حق اليهود، وخاصة القاضي. وذهب اليهود إلى فاس البالي. ولم يَسمح [الوجهاء المسلمون] بإذاية اليهود."**م. ن.**، ص. 21.

85-ومن ذلك ما جاء في النص التالي: «... أرسل مولاي المتوكل [ابن مولاي إسماعيل العلوي] إلى اليهود [بفاس] يطلب تمكينه من أربعمائة أوقية، ولم يجد أحدا من وجهاء طائفة فاس، فقُبض على رجل شيخ اسمه الحبر أفرايم اللاوي، وعلى شاب آخر اسمه الحبر نسيم بن دنان. وكان يضربهما حتى ذهب إلى القائد العربي الجساس وتدخل عنده وخلّص ذينك اليهوديين. وأعطته الطائفة سبعمائة أوقية، وأعطوا سخرة أربعمائة وخمسين أوقية.»**م. ن.**، ص. 59.

86 - في سنة 1792م تدخل القائد الغنيمي لفائدة يهود فاس لدى السلطان اليزيد ضد أحد مبعوثيه من الشرفاء إلى مخيم اليهود بالقصبة لجمع الضريبة منهم فأجحف في حقهم، ف»أمر [الملكُ] القائدَ بتخليصهم من الأسر، وأمر بأن لا يجتمع الشريف بهم أبدا.»**م. ن.**، صص. 87-88.

87 - مثلا: يقول الإخباري إنه بعد عودة اليهود من مخيم القصبة بفاس إلى ديارهم بالملاح: «وذهبنا إلى القاضي سي التاودي عزالله، والتمسنا منه أن يكتب إلى الملك، سمت جلالته، بشأن الجامع التي بنى المسيء [اليزيد] في حينا. وأفتى القاضي بحِرمة استعمال هذا البناء، لأن البنّائين والعمال كان قد تم أداء أجورهم من ماء الحياة التي أخذت من اليهود، كما أنه بُني على أرض مغصوبة. وعلى الفور أمر الملك، سمت جلالته، بهدم الجامع، فُهدم، لا عاد إلى الارتفاع أبدا.»**م. ن.**، ص. 91.

88 - ورد أن مولاي اليزيد لما تولى الحكم "... أمر بقتل كل يهود مملكته (...) وألهم الله أحد قضاة المدينة [تطوان]، انحنى أمام المسيء [اليزيد] وقال له: لن يكون فعلا حسنا قتل كل اليهود، لأن شريعتنا لا تأمر بذلك."**م. ن.**، ص. 79.

89 - قتل أبو القاسم ابن أبي النعيم الغساني بفاس، على يد اللمطيين، سنة 5383ع/1623م/1032 هـ: «... وتمرد اللمطيون على الملك، وتضررت الطرقات. ويوم الجمعة بعد الصلاة، ذهب القاضي الشيخ ابن التسعين إلى بيت الملك، وقتل حين عودته من طرف اللمطيين، وكان رجلا فاضلا يحب اليهود.»(**م. ن.**، ص. 31.) راجع ترجمة ابن أبي النعيم وسبب مقتله في: نشر المثاني، **م. س.**، ج. 1، صص. 258-254، والهامش رقم 2 بالصفحة 255 من **م. ن.**

ب - على المستوى«الشعبي»

- مساعدة اليهود جيرانهم المسلمين: ومن ذلك أن الأمير عبد الله بن الشيخ المهدي لما فشل في استعادة فاس من أبي حسون الوطاسي،"وانكْسَر وُهْربْ، وخَلاّ عرب سوس أرحامنة والوداية قوم اِينْ يسقيها ماء ولا يطعمْها ماء: بْقاوا مَسْيِنْ يسْعاوْا عْلى دْيار اليهود. مات منهم شي لا يقْدرْ يْقولْ حدّ..."[90]. ومن ذلك أيضا قيام يهود فاس بمحاولة إسعاف عاملين مسلميْن سقط عليهما سور رفقة معلمهما اليهودي[91].

- إيواء اليهود لمسلمين وبالعكس: فحين انتشر خبر موت الأمير مولاي حفيظ بن مولاي إسماعيل في سنة 1704م[92]، "أخذ مسلمو فاس البالي، الذين كانوا بالملاح، يختبئون في ذلك الوقت في دور اليهود، ويفرون من سطح دار إلى آخر. واختبأ عندي "الخواجة" الثري سي محمد عديل في "زورية"، في إحدى الدور القريبة من المقبرة. (...) وعند سماع الخبر، هرب كل الناس، يهودا ومسلمين وهناك من ترك دكانه مفتوحا وفر. وأُقفلت كل الحوانيت، وأقفل كل واحد بيته عليه. والذي كان بعيدا من منزله لم يتمكن من الذهاب إلى داره حتى انصرمت ثلاث ساعات وكان الناس يعودون إلى بيوتهم من فوق السطوح»[93]. وبالمقابل فإنه أثناء الاضطرابات التي شهدتها فاس في عهد مولاي اليزيد هاجر أكثر اليهود إلى صفرو، وهناك من ذهب منهم إلى فاس البالي واستقر في فنادق المسلمين[94].

- نجدة المسلمين لأبناء الطائفة: عندما شب حريق في مخيم الطائفة بقصبة فاس، مرة أخرى في سنة 1792، والذي أتى على"قرابة مائتين من النوايل، واحترقت كثير من الأواني والكتب والصناديق، والموائد، وجرار العسل، وجرار الزبدة والخليع[*] (...) ولم يتمكن أحد منا من إنقاذ أمتعته (...) وفررنا إلى ساحة القصبة، وجلسنا هناك

---

90 - كتاب التواريخ، م. س.، ص. 10.

91 - م. ن.، ص. 72.

92 - عن معاملة الأمير مولاي حفيظ ليهود فاس وكثرة المغارم والضرائب التي فرضها عليهم حتى إنهم اضطروا للتظلم أمام السلطان بمكناس. راجع: م. ن.، صص. 57-50.

93 - م. ن.، ص. 57.

94 - م. ن.، ص. 85.

(*) طعام من لحم القديد -لحم مجفف- والسمن.

رجالا ونساء وأطفالا إلى حدود منتصف الليل، **وكان اليهود والمسلمون يضربون بالعصي، ويُسقطون النوايل لعل النار تنطفئ"**[95].

- استئمان اليهود جيرانهم المسلمين على أموالهم: بعد وفاة محمد بن عبد الله، في عام 1790م، «ضجت كل المدينة [فاس]، وكانت فوضى عظيمة، وكان ارتباك في أوساط اليهود، وبين الـگوييم [المسلمين]، وانتابنا [أي اليهود] خوف وعجز وذعر، وخِلنا أنفسنا موتى، وقلنا إن أهل القبائل سيأتون إلى المدينة يقينا ليسلبوا الجميع، وليستبيحوا النساء، وكان الجميع يفر ويهرِّب أمواله تحت البيوت. ولم يغمض لأحد جفْن هذه الليلة، لأن الجميع كان يحفر ويبني على الأموال. **وهناك من هرّب أمواله عند الـگوييم بفاس الجديد»**[96].

- التناصح والتسامح الديني والتعاضد لما فيه مصلحة الجميع: تجلى ذلك، بشكل واضح، أثناء سنوات الجفاف. فعندما حدث جفاف في سنة 1737م، بعث مسلمو فاس رسلا إلى اليهود يحثونهم على التوبة وإصلاح خطاياهم ليسقي الله عباده وبهيمته وينشر رحمته ويحيي بلده الميت. وهذه الخطايا -حسب الرسل- هي: بيع «ماء الحياة»(ماحيا)(*) على نطاق واسع، خارج "دار الطِّبيْرْنة"(**)، والحلف بالزور، والكذب، وترك الصلاة[97]. وأثناء جفاف 1759م، بعث مسلمو فاس، أيضا، لجيرانهم اليهود في طلب الغيث[98].

ومن الطرائف أو المفارقات، التي لم يفت مدوني أخبار «**كتاب التواريخ**» تسجيلها بمناسبة ما كان يحدث من تقارب واتصالات وتسامح أثناء سنوات الجفاف تلك، أن المسلمين، مرة، لم يقفوا عند مجرد حث جيرانهم من اليهود على التوسل إلى الله في طلب الغيث أو نصحهم بالتوبة، بل إنهم قلدوهم فنادوا بالصوم ثلاثة أيام، على غرار

95 - كتاب التواريخ، م. س.، ص. 86.

96 - م. ن، ص. 79.

(*) - خمر اشتهر يهود المغرب بتحضيرها من التين المجفف وما شابهه من الفواكه، وعرف المسلمون أيضا بتحضير نوع آخر من الخمور من العنب غير مسكر، عرف في المصادر بـ «الرُّبّ»، وكانت إحدى أبواب مراكش تسمى بهذا الاسم، لأنه كانت بجوارها قبالة لبيع هذا المشروب واستخلاص الضرائب عنها، على ما يبدو.

(**)- الخمّارة، أي المكان المخصص لشرب ماء الحياة (ماحيا) في أحياء اليهود بالمغرب.

97 - كتاب التواريخ، م. س.، صص. 67-66.

98 - م. ن.، ص. 70.

ما يفعل اليهود للاستمطار. وقد حدث ذلك في سنة 1659م حين «اتْعطل الشتاء (...) وبرحوا في المدينة [فاس] كلهم يصوموا الـﮕوييم ثلاث أيام، شاين لا عمْرْنا سْمعْنا»[99]. لأنه من المعروف أن المسلمين يستمطرون، عادة، بصلوات الاستسقاء والدعاء والطواف على أضرحة الأولياء والصالحين، في حين يلجأ اليهود إلى الصوم وزيارة أضرحة صلحائهم، ويصومون، عادة، ثلاثة أيام[100].

- تعاطف المسلمين مع الطائفة إذا ظُلم أحد أبنائها: كما في قضية يهودي تعرض للتعذيب، بسبب طعنه مسلما بـ «المدْيس»، فـ «رجْموه (...) وبعد هذا حرْقوه وهو حي، ولا علاش، إلا باطل، ومات (...) حتى أن اسمعنا المسلمين يشكروه ويقولو إما اصبر بدينو»[101].

- سيادة روح التساكن والاندماج والتسامح في الاحتفالات"الوطنية"الكبرى: ولُمس ذلك، بصفة خاصة، في أن الحاخامات قطعوا على أنفسهم وعلى خلفهم أن يعتبروا ذكرى يوم "الملحمة العظيمة" التي انتصر فيها المسلمون على النصارى، في وادي المخازن، "عيد بوريم[**] تُعطى فيه الصدقات للفقراء، ويُحتفل به إلى أن يأتي المسيح"[102]. لأنهم اعتبروا أن الرب خلصهم من الملك البرتغالي المتعصب سباستيان[103].

إلا أن أبرز مثال، في هذا السياق، هو الذي ارتبط بمناسبة نجاة السلطان إسماعيل العلوي من تعرضه لهجوم لبوءة، وقد اعتبرت الطائفة ذلك«بشرى طيبة»، بل «معجزة»، وذلك لأمرين: أولا، لأن الملك أنقذه الله من اللبوءة، وثانيا، لأن المسلمين لم يعترضوا على اليهود ولم يتعرضوا لهم عندما اقتحموا الجوامع بنعالهم في غمرة الفرح، التي اندمج فيها المسلمون واليهود. وفي ما يلي نص الحادثة:

---

99 - **م. ن.**، ص. 40.

100 - يصوم اليهود عادة يوم الاثنين ويوم الخميس ثم يوم الاثنين الموالي، وهكذا. راجع: **م. ن.**، ص. 8، وهنا وهناك.

101 - **م. ن.**، ص. 16.

(**)- بوريم في الأصل هو تخليد لليوم الذي أُنقذت فيه أستير وأبوها ماردوخاي اليهود من الفرس. راجع: لوي فوانو، **وجدة والعمالة، مونوغرافية وجدة وقبائل شرق المغرب**. ترجمة وتعليق: محمد الغرايب، مطبعة شمس، وجدة، 2003، ص. 201، هامش رقم 18.

102- كتاب التواريخ، **م. س.**، ص. 15.

103- المكان نفسه.

«في يوم الجمعة من شباط 5442 [1682م] لبدء الخليقة، وردت علينا بُشرى طيبة من مدينة مكناس بحدوث معجزة كبيرة للملك مولاي إسماعيل، ارتفع مجده، الذي أنقذه الله تبارك وتعالى من لبوءة...» [104]. وتابع الإخباري: «... وُعمْلوا ذاك نهار كبير المسلمين واليهود، وفي كل البلاد كانوا يعمْلوا النزاهة و"مِشْته" [وليمة يقدم فيها الشراب] واليوم الطيب. وبرحوا الحاخاميم ورؤوس الطائفة باين ما يحل حد الحانوت ديالو، وذي عندحاجة مليحة يلبسها ويزين بها، وزينوا السطاح ذي الملاح وطّيقان بالخوامي والحجوب والنطاير دَالْحرير. وعملوا اليهود أربعة دَالعْلُوم. وجاالمسلمين، وبقاوا يلعبوا ويشربوا الشراب وماحيا. ومشاوا اليهود لدار الملك ولديار الشرفا والقياد ولجوامع والمدرسات بسبابطهم، ولا من هدر معاهم من الـگوييم. وحوسوا اليهود حوانيت الـگوييم في فاس البالي ولا من كلمهم، وعلى قد هدشي هو معجزة كبيرة»[105].

- تحول أبناء الطائفة إلى الإسلام: تتحدث أخبار «**كتاب التواريخ**» عن اعتناق أعداد كبيرة جدا من اليهود للإسلام في الأزمات الشديدة الوطأة، أملا في التخفيف من مآسي أفرادها، وهو ما كان يُنظر إليه، طبعا، برضى وباستحسان كبيرين من قبل المسلمين، وبحسرة وألم من أبناء الطائفة[106].

كان هذا إذن بعض مما وقفنا عليه من تجليات لمظاهر التعايش والتسامح الديني، التي ميزت العلاقة بين المسلمين واليهود أثناء مختلف الأزمات التي سجلها مدونو أخبار «**كتاب التواريخ**"، وقد اقتصرنا على جملة منها كنماذج وليس عليها كلها، لأن غايتنا كانت هي محاولة إثارة الانتباه إلى موضوع حساس، والنظر إليه من زاوية الطائفة اليهودية المعاصرة لأحداث جسيمة والمسومة بنارها، ومن ثم المساهمة،

104- م. ن.، ص. 47.

105 - م. ن.، ص. 48-47. وسبب تعرض السلطان لهذا الهجوم، أنه لما"أربعة نصارى [أسرى] حافوا غْلى بيت المال ذا المليك مولاي إسماعيل باش يسرقوها، وقاموا عليهم وقبضوهم، واللغدة حبّ الملك يتفرج عليهم، ويعطيهم لسبوعة ياكلوهم. وطلاع معاهم الملك فوق السور ذي دار السبوعة باش يتفرج، وهبطوا النصارى بأربعة لعند السبوعة ولا كْلاوْهُومْشي. قال للقايد والشرفاء والعبيد ذي كانوا معاه فوق السور يرجموهم. وقام واحد النصراني هْدر مع واحد اللبية [اللبوءة] بالعجمية، قالها تنقز لفوق السور وتطيّح الملك وتاكلو، لاين كانوا مربيين معاهم يعطيوهم كل النهار ما ياكلوا وما يشربوا. ونقزت اللبية على الملك وقبضاتوا من لكتف ديالوا في اليد اليسرى، واليد اليمنى كان محكوم في السور لاين كان السور عالي. ومناين رمات يدها في الملك قبضاتوا من لحمالة ذي كانت عليه ولا قبْضت اللحم، جا واحد من العبيد ذ الملك وضربها برصاصة بين عينيها. طاحت اللبية لدار السبوعة والملك طاح على برا. وفكوا الله تبارك وتعالى."م. ن.، ص. 47.

106 - فمثلا في مجاعة 1606-1603م،"بدل أكثر من ألفين عقيدتهم."م. ن.، ص. 18 وهنا وهناك.

بموضوعية وبصراحة أكثر، في طرح إشكالية موروثنا التاريخي بتلويناته وبتناقضاته، وبعقائده ومذاهبه، وبآرائه ومواقفه المتعددة والمختلفة، بلا إقصاء ولا انتقاء. ونترك للقارئ الكريم أن يتدبر أمر هذه الشهادات كما وردت على لسان أبناء الطائفة اليهودية المغربية أنفسهم.